الوطنية الليبية والحكم الأجنبي في العصر اليوناني – الروماني

مصطفى كامل عبدالعليم

ربما ينطوي استخدام لفظة «الوطنية» – حين يتعلّق الحديث بالتاريخ القديم – على قدر من اللبس. والمقصود بها في هذا المقام هو المقاومة الليبية للإحتلال الأجنبي الذي أجبر قبائل وجماعات السكان الأصليين على الإنسحاب من السهول الساحلية الخصبة.

والقول بأن السهول الساحلية كانت مقفرة وغير مأهولة حين جاء إليها الفينيقيون في حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، لتأسيس أسواقهم في إقليم طرابلس، أو حين جاء الإغريق إلى إقليم برقة في القرن السابع لتأسيس مستعمرتهم الأولى «قورينة»، قول يجانبه قدر من الصواب.

لقد اكتشفت، في كل أرجاء ليبيا[1]، مواقع تنتمي لعصر ما قبل التاريخ. وظهرت أسماء الجماعات الليبية في النقوش الفرعونية، كما ظهرت رسوم تمثّلهم في النقوش المصرية البارزة منذ الألف الثاني قبل الميلاد إن لم يكن قبل ذلك. ويمكن أن نذكر من بين هذه الأسماء «التحنو» و «التمحو» و «الليبو» و «المشوش». وكانت المجموعتان الأخيرتان تضغطان بشدّة على الحدود الغربية لمصر ساعية إلى إيجاد موئل لها فيها. وقد أشاعت هذه القبائل الرعب والدمار في مصر حين أخذت تواجه الضغط من «شعوب البحر». ونجح فراعنة الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين في ردّها على أعقابها إلى ديارها داخل ليبيا[2]. وإذا كانت البعثة التي أوفدتها جامعة بنسلفانيا في ربيع عام ١٩٦٣، قد حاولت أن تعثر في إقليم برقة على آثار لليبيين في عصر البرونز، فقد حفظت لنا الوثائق المصرية ذكرى أولئك الليبيين الذين كانوا يقومون بدور الوسطاء في التجارة فيما بين افريقيا ومصر وبحر إيجه[3].

ونحن ندين بجانب كبير من معلوماتنا عن القبائل الليبية لما أورده هيرودوت تحت عنوان « *Libykoi Logoi* » في الكتاب الرابع من تاريخه. وعلى الرغم من أن بعض نقّاد هيرودوت لم يجانبهم الصواب فيما وجهوه إليه من انتقادات، فإن ما يقدّمه لنا من معلومات بشأن القبائل الليبية يظل في معظمه ثمينًا ولا غنى عنه. فقد سجل أسماء القبائل وحدّد مواقعها الجغرافية وأورد كافة المعلومات التي تهم الأنتروبولوجيين الراغبين في دراسة ديانتها وعاداتها وحياتها الإجتماعية. ومن الأمور البالغة الأهمية – في حدود دراستنا هذه – أن نقف على العلاقات التي كانت تربط هذه القبائل بالأجانب الذين احتلوا أراضيها وحالوا بينها وبين الدنو من الشاطئ.

ويورد هيرودوت أسماء القبائل على النحو التالي. أديرماشيد Adrymachidae ، جيليجام (Gilligames) ، أسبيت (Asbytes) ، أوشيز (Auschises) ، بكال (Bakales) ، نسامون (Nasamonians) ، بسيل (Psylls) ، مكاي (Macae) ، جندان (Gindanes) ، لوتوفاج (Lotophagi) ، ماشلي (Machlyes) ، وأوسى[٤] (Auses) .

وحين جاء الدوريون مع باطّوس لتأسيس مستعمرة في قورينة ساعدهم الليبيون القاطنون أزيريس Asiris فعرضوا عليهم أن يدلوهم على المكان الذي استطاعوا أن يؤسّسوا فيه مستعمرة قورينة (-٦٣٢)[٥]. وربما كان الليبيون القاطنون حينذاك أزيريس ينتمون إلى الجيليجام[٦] ، ومن المحتمل أيضًا أن الأرض التي أقام فيها اليونانيون كانت تابعة للأسبيت. ولم يكن المستعمرون قد أحضروا معهم عددًا كافيًا من النساء مما أدّى ، كما يقول هيرودوت ، إلى زواج بعضهم بنساء ليبيات ينتمين إلى إحدى القبائل الليبية المجاورة. ويحتمل أن تكون هذه القبيلة هي قبيلة الأسبيت التي اعتبرها اليونان من «أهل الجيرة» perioikoi . وقد ضم ديموناكس «أهل الجيرة» هؤلاء إلى مواطني جزيرة ثيرا لتتكون منهم القبيلة الأولى من القبائل الثلاث التي قسم اليها مواطنو قورينة. وقام بتخطيط المدينة ، عملاً بالدستور ، ساعيًا إلى وضع حدّ للشقاق الداخلي الذي حدث في عهد الملك باطّوس الثالث نتيجة للصراع بين المستوطنين القدامى والجدد الذين كانوا يريدون أن يشاركوهم الامتيازات نفسها[٨].

ومن الواضح أن العلاقات بين العنصرين الوطني والأجنبي في سكان قورينة وضواحيها قد اتسمت بقدر من الود والتفاهم. ولكن الموقف تغيّر حين قام الملك باطّوس الثاني (من - ٥٨٣ إلى - ٥٧٠) بمصادرة أراضي الليبيين ليعطيها للمستوطنين الجدد الذين شجّعهم على المجيء لتعزيز العنصر اليوناني في قورينة[٩]. وشنّ الليبيون الحرب على اليونان ، إلاّ أنهم هزموا واضطروا إلى الإستسلام على الرغم مما أرسله إليهم ملك مصر ، أبريس ، من جنود لمساندتهم[١٠].

وقد نشب الخلاف بين الملك التالي ، أركسيلورس الثاني ، وبين أشقائه الذين التمسوا مساعدة قبيلة أوشيس. ولم تتردّد القبيلة الليبية في اغتنام هذه الفرصة للإنتقام مما لحق بها من هوان وهزيمة ، بل أنها سعت أيضًا إلى انتزاع السيطرة على تجارة السيلفيوم من ملوك قورينة[١١]. وهزم الليبيون الملك ، ولكن هيرودوت لا يذكر شيئًا عن استعادتهم للأرض. وكانت هذه الحروب بداية لصراع ومشاحنات مريرة لم تتوقف حتى الفتح العربي لإقليم برقة في عام ٦٤٢ ميلادية.

وفي عام - ٥١٤ قدم المكاي العون إلى قرطاجة وهزما معًا الأمير الإسبرطي دوريوس Dorieus حين جاء إلى وادي كينبس Kinyps ليقيم فيه مستعمرة إسبرطية. وفي اعتقادنا أن المكاي خاضوا المعركة ضد دوريوس لحسابهم الخاص إذ كانوا يقيمون في ذلك الجزء من أراضي ليبيا[١٢].

وتتجلّى في هذا التعاون بين قرطاجة والمكاي السياسة الودية التي انتهجتها قرطاجة تجاه الليبيين، والتي تختلف عن سياسة اليونانيين في قورينة. فقد كانت قرطاجة حريصة على ممتلكاتها في خليج سرت وعلى الإفادة من التجارة الأفريقية التي كان الجارامانت يجلبونها إلى أسواق ليبتوس ماجنا (لبدة الكبرى) وأويا وصبراطة. ولم تحاول قرطاجة أن تتغلغل في أراضي الجارامانت كما فعل الرومان من بعد، أو أن تسيطر على الطرق الصحراوية التي كانت تسلكها القوافل الجارامنتية في طريقها إلى هذه الأسواق. ومن هنا انزعجت قرطاجة حين تقدّم الأمير الإسبرطي إلى وادي كينبس، وهو ما يعيد إلى الأذهان القصة المعروفة لمعبد (أرايي فيلاينوروم Arae Philaenorum) الذي اعتبر خطًا نهائيًا للحدود بين قرطاجة وقورينة قرب منتصف القرن الرابع قبل الميلاد[١٣].

وفي حوالى عام – ٤٤٠ انتهى عهد أسرة باطّوس. فهاجم الليبيون عددًا من المدن الإغريقية في إقليم قورينة. وقام الناسامونيون بمحاصرة يوهسبريدس (بنغازي) في إقليم قورينة وأصبحت قورينة نهبًا للإضطراب، إذ غدت مسرحًا للصراع بين شيع مختلفة كان بعضها يلقى المساعدة من الليبيين[١٤].

وكانت قورينة والمدن اليونانية الأخرى في إقليم برقة على أعتاب تغيرات خطيرة حين وصل الإسكندر الأكبر، بعد فتحه لمصر في عام – ٣٣١، إلى مدينة بارايتونيوم (مرسي مطروح) التي تقع غرب الإسكندرية على الساحل الشمالي لمصر، واقترب من إقليم برقة. وظنّت قورينة أن الإسكندر يزمع تدمير الإقليم، فسارعت بإيفاد سفراء إليه يعلنون طاعتها وخضوعها[١٥]. وبعد فترة قصيرة، تمكّن بطليموس الأول، وكان لا يزال واليًا على مصر، من فرض سلطته على المدينة[١٦].

ويمكن أن نتعرّف على أحوال الليبيين تحت حكم البطالسة في إقليم برقة من بعض المصادر الأدبية والنقوش. فحسبما يذكر سكيلاكس Scylax (الذي كتب في حوالى عام – ٣٢٠) كانت القبائل الليبية الموجودة هي الاديرماشيد والمارماريد والنسامون والمكاي واللوتوفاج[١٧]. ويبدو أن سكيلاكس قد اقتصر على ذكر أسماء المجموعات الكبرى إذ أغفل أسماء الجيليجاميين والأسبيتيين والأوشيزيين والبكاليين الذين سبق لهيرودوت أن تحدّث عنهم. ومن الواضح أنه أطلق على هذه القبائل اسمًا جماعيًا هو «المارماريد»، إذ كانوا يقطنون منطقة مارماريكا التي سميت باسمهم[١٨].

وقد نصّ أول أحكام الدستور البطلمي، الذي منحه بطليموس الأول لقورينة[١٩]، على معاملة الأشخاص الذين ولدتهم نساء ليبيات لآباء من قورينة معاملة المواطنين.

وهناك نقش[٢٠] من قورينة يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد يذكر أن خمسة من قادتها العسكريين قدّموا إلى «أبوللو» عشر ما حصلوا عليه من أسلاب بعد هزيمتهم للمكاي والناسامون، وأنهم أقاموا الستراتجيوم *(Strategium)* احتفالاً بهذا النصر.

وحين أخذ ماجاس، ملك قورينة، في الزحف على الإسكندرية نجحت أرسينوي الثانية زوجة بطليموس الثاني (فيلاديلفوس) في تحريض المارماريد عليه فاضطر إلى الإنسحاب من مصر[٢١].

ونحن نعرف من مصادر مصر البطلمية أن الفرسان الليبيين في جيش بطليموس الرابع (فيلوباتروس) اشتركوا في معركة رافيا في عام – ٢١٧ ، وأن جيش البطالمة كان يضم ثلاثة آلاف مقاتل ليبي مسلّح بقيادة أمونيوس. وهو يوناني من قورينة[٢٢].

وحين توجّه بطليموس الصغير، ملك قورينة، إلى روما في عام – ١٦٣ ليشكو أخاه بطليموس الثامن (يوراجيتس الثاني)، ترك في قورينة شخصًا ليبيًا يدعى سيمبتيسيس كنائب للملك. وقد تمرّد الليبيون بقيادة نائب الملك هذا وبالتحالف مع مواطني قورينة والمدن الأخرى، على بطليموس الصغير[٢٣].

وبوجّه عام عاش الليبيون حياتهم في عهد البطالمة دون تدخّل تقريبًا وإن لم يتمكنوا – على الأرجح – من الإفلات من تحكّم الحكومة البطلمية في النشاط الإقتصادي.

وفي عام – ٩٦ انتقل إقليم قورينة، بمقتضى وصية أبيون[٢٤]، إلى الشعب الروماني. وفي حوالى عام – ٤٧ هبطت مكانة ليبتس ماجنا (لبدة) المدينة الفينيقية في إقليم طرابلس، وربما أيضًا مدينتي أويا وصبراطه، الى منزلة المدن التابعة. وعلى هذا النحو سيطرت روما على إقليمي برقة وطرابلس[٢٥].

ونحن نعتمد على سترابون وديودور وبلينيوس الكبير وبطليموس في معلوماتنا عن القبائل الليبية حتى القرن الثاني الميلادي[٢٦].

وقد استمرت القبائل الرئيسية التي ذكرها هيرودوت وسكيلاكس موجودة، على حين ظهرت أسماء قبائل أخرى مثل الجاتيول والفازان.

وفيما يتعلّق بقورينة وإقليم برقة كلّه، لم تعتبرها روما ولاية حتى عام – ٧٤/٧٥. وفي الفترة من – ٩٦ إلى – ٧٥، ابتليت قورينة بحكم إستبدادي لطاغية ليبي يسمّى أنابو Anabo . وقد سمح هذا الطاغية لرجاله بالإقامة في المدينة حتى قرّر بنفسه الجلاء عنها حين أيقن أنه يستطيع العودة إلى احتلالها وقتما شاء[٢٧].

وفي عام – ٢٧ وزّع أغسطس حكم الأقاليم بينه وبين مجلس الشيوخ. فتولى المجلس حكم إقليم قورينة الذي شكّل مع كريت ولاية واحدة، على حين ضُمَّ إقليم طرابلس إلى ولاية افريقيا[٢٨].

ومنذ بداية الحكم الروماني كان من المستحيل تجاهل حركة القبائل أو حتى الحدّ منها، إذ كان الليبيون قد اعتادوا هذه التحركات سعيًا للوصول إلى الساحل. ويمكن اعتبار هذه التحركات نتيجة طبيعية للصراع بين سكان الأراضي الصحراوية القاحلة وسكان السهول الساحلية الخصبة التي حاول الإغريق، والرومان من بعدهم، أن يمنعوا عنها الليبيين[٢٩]. كذلك كان من الصعب على الرومان أن يحملوا القبائل الليبية على التحوّل من حياة البداوة إلى الإستقرار. فقد حاولت روما إقناع

الليبيين بالإستقرار وفلاحة المزارع بالقرب من المدن الساحلية حتى يسهل على جباة الضرائب الرومانيين ممارسة عملهم.

من هنا نستطيع أن نفهم فداحة العبء الذي كان على السلطات الرومانية أن تتحمّله في إقليمي قورينة وطرابلس. فقد كان على الحكام أن يواجهوا القبائل المتمرّدة في مارماريكا وغارات الناسامونيين الأقوياء القادمين من صحراء سرت.

ولم يكن أمام القوات الرومانية سوى حل واحد هو احتلال ليبيا بكاملها، ولم يكن ذلك بالأمر السهل. فإذا كانت روما قد استطاعت احتلال السهول الساحلية بسهولة، فقد كان من الصعب عليها الإيغال في الجنوب حتى فزّان لإخضاع قبيلة الجارامانت المحاربة صعبة المرام.

ولم يحتمل الرومان الانتظار – كما فعل الفينيقيون من قبل – وهم يرون الجارامانت يحملون السلع الافريقية إلى الأسواق، كما لم يطق الجارامانت أن يسيطر الرومان على الأراضي التي ألفوا اجتيازها بحرية في طريقهم إلى الساحل.

ومن ثم كان من المستحيل على الرومان والجارامانت تجنّب الحرب التي أصبحت السبيل الوحيد لحسم أسباب النزاع بين الطرفين.

وفي عام – ٢٠ زحف البروقنصل لوسيوس كورنليوس بالبوس بقواته على الجارامانت، فغزا إقليم فزّان واستولى على بعض المدن الجارامنتية ومنها العاصمة جراما. وأثارت هذه الحملة الناجحة التي شنّها بالبوس انزعاج الجارامانت إذ بيّنت لهم قوة روما وجعلتهم أكثر حذرًا في التعامل مع الرومان. ويمكن أن تربط هذه الحرب ضد الجارامانت بحرب مع قبيلة ليبية أخرى هي قبيلة الجايتولي (*bellum Gaetulicum*) التي جاء ذكرها في نقش من نقوش ليبتس ماجنا. وكانت هذه القبيلة تعيش في منطقة تقع في الشمال الغربي من منطقة الجارامانت وتمتد حتى توميديا[٣٠].

ويتحدّث نقش من نقوش قورينة[٣١] عن نهاية حرب مارماريكا *(polemos Marmarikos)*. ولايزال تاريخ نشوب هذه الحرب موضع جدال. فإذا قبلنا الرأي القائل بأنها وقعت في عام – ٢٠، فإن معنى ذلك أن المارماريد هاجموا قورينة بمساعدة الجارامانت. ومن المعروف أن قويرينيوس Quirinius حاكم ولاية كريت وقورينة هزم هذه القبائل، مما يعني أن السلطات الرومانية كانت تعتبر الدفاع عن روما مسؤوليتها في المقام الأول. فقد أرسلت بالبوس كي يقاتل الجارامانت وقويرينيوس ليقاتل المارماريد، كما أنقذت ليبتس ماجنا في إقليم طرابلس من هجوم الجايتوليين في العام نفسه[٣٢].

وفي عهد تبيريوس Tiberius تمّردت في نوميديا قبيلة الموسولام وهي بطن من بطون الجايتولي، بقيادة تاسيفاريناس وهو جندي نوميدي هرب من خدمة القوات الرومانية الإحتياطية. وفي عام ٢٠ الميلادي أرسل دولابلا على رأس الفرقة التاسعة الإسبانية لمساندة الفرقة الثالثة الأوغسطية،

ويبدو أن المعارك الحربية قد امتدت إلى الأجزاء الغربية من ليبيا. فقد عسكرت القوات الرومانية بالقرب من ليبتس ماجنا حتى تقطع طرق المواصلات بين الموسولامي والجارامانت. ولم يقدّم الجارامانت إلى تاسيفاريناس سوى عدد قليل من المقاتلين خوفًا من بطش روما. وعندما قتل الثائر النوميدي في عام ٢٤ الميلادي، أوفد الجارامنت بعثة سفراء عنهم ليرافقوا دولابلا إلى روما طلبًا للسلام. واستجابت روما لرجائهم مؤثرة ألا تستثير حنق الجارامانت خشية إقدامهم على أعمال عدائية. وقد سجلت مدينة ليبتس ماجنا، في إقليم طرابلس، بالإمتنان نهاية «حرب الجايتول» التي أنقذت ليبتس ماجنا من تاسيفاريناس[٣٣].

وفي عام ٦٩ الميلادي واجه الجارامانت قوات روما مرة أخرى، حين تدخّلوا في نزاع بين مدينتي أويا وليبتس ماجنا التي استنجدت بحاكم نوميديا، فاليريوس فستوس، فهب إلى نجدتها وأجبر الجارامانت على الإنسحاب. ولم يلبث أن أوقع بهم الهزيمة وتوغّل في أراضيهم سالكًا طريقًا صحراويًا مختصرًا يعرف بطريق Iter Praetor Caput Saxi [٣٤]. وبعد هذا الانتصار الذي حقّقه فستوس أدرك الجارامانت أن الحكمة تقتضي التصالح مع الرومان، وبرهنوا على صدق نواياهم بالإشتراك في حملتين رومانيتين في عهد دوميتيانوس، إحداهما الى السودان والأخرى إلى تبيستي[٣٥]. ولم يشيد الرومان، سواء بعد انتصار بالبوس (عام–٢٠) أو انتصار فستوس، أي حصون للاحتفاظ بالحاميات الرومانية كقوات دائمة[٣٦]. ولكنهم حصلوا، دون شك، على أهم ما كانوا يطمعون في الحصول عليه من أراضي الجارامانت وهو العقيق الأبيض، ذلك الحجر الكريم الذي يحدّثنا عنه بلينيوس[٣٧] والذي يقول سترابون إنه كان يستخرج من فزّان. وكانت أهم النتائج التي أسفرت عنها الحروب مع الجارامانت أنهم تحوّلوا إلى قبيلة مسالمة وأقاموا علاقات سلمية مع الرومان[٣٨].

وهكذا كف الجارامانت عن أن يكونوا مصدر تهديد للرومان، غير أنه حلّت مكانهم قبيلة ليبية أخرى هي قبيلة الناسامونيين الذين أصبحوا مصدرًا للقلاقل والفتن. فقد تمرّدوا على روما في عهد الإمبراطور دوميتيانوس وجاهروا بسخطهم على جباة الضرائب الرومان وعلى السياسة الرومانية التي كانت تجبرهم على البقاء في أراضيهم. وعلى الرغم من انتصارهم على القوة الرومانية التي أرسلت لقمعهم، فقد ارتكبوا خطأً فادحًا اذ أفرطوا في شرب الخمر بحيث تمكّن الرومان من الإجهاز على كثير منهم وتشتيت الباقين في الصحراء. وكان دوميتيانوس فخورًا بهذا النصر الذي حقّقته روما، فأعلن أمام مجلس الشيوخ أنه قضى قضاءً مبرمًا على الناسامونيين. ولم يكن ذلك صحيحًا، إذ ظلّت المصادر الرومانية تورد اسم الناسامونيين[٣٩].

وكان القرن الثاني الميلادي قرن سلام ورخاء للإمبراطورية الرومانية ولليبيا على السواء. إلاّ أن المنطقة الساحلية من إقليم طرابلس. أخذت تواجه مرة أخرى، قرب نهاية ذلك القرن، غارات من الجارامانت والناسامون. ويُقال إن الامبراطور سبتيميوس سفيروس (١٩٣ – ٢١١) جاء بنفسه لينقذ

مسقط رأسه ليبتس ماجنا. ولكن سياسة الرومان الدفاعية تغيّرت هذه المرة. فعوضًا عن مقاتلة الليبيين وردهم إلى مواطنهم في الصحراء، قام سبتيميوس سفيروس وخلفاؤه ببناء حصون دائمة وسلسلة من الخطوط الدفاعية. وكان ذلك بمثابة نظام دفاعي جديد يكفل الأمن والحماية للأسواق والمنشآت الساحلية الأخرى ومزارع الزيتون في إقليم طرابلس. وقد أقيمت الحصون على الطرق الرئيسية الثلاثة المؤدية إلى أراضي الجارامانت، ورابطت فيها فصائل من الفرقة الأوغسطية الثالثة[٤٠]. وقد أقيمت خلف هذه الحصون مستوطنات لحراس الحدود Limitanei وكانوا جنودًا من أبناء ليبيا يمنحون قطعًا من الأرض عند نهاية خدمتهم في الجيش الروماني[٤١].

وفي عام ٢٣٨ قام الإمبراطور جورديان الثالث بتسريح الفرقة الأوغسطية الثالثة، وأنيطت حماية الحصون بقوات مجنّدة محليًا.

إلاّ أن كل هذه التدابير لم تحل بين القبائل الليبية وبين شن غارات جديدة في قورينة. فهاجم المارماريد قورينة في عهد كلوديوس جوتيكوس (٢٦٨ إلى ٢٧٠)، ونجح والي مصر تناجينو بروبس، وكان خبيرًا بالصحراء، في إنقاذ المدينة وأطلق عليها اسمًا جديدًا هو كلوديو – بوليس[٤٢].

وحين رأى الامبراطور ديوكلتيان (٢٨٤ الى ٣٠٥) ضرورة إعادة تنظيم الدفاع عن الإمبراطورية كلّها، قام بفصل إقليم قورينة عن كريت، وقسم ليبيا إلى قسمين ليبيا العليا، أو البنتابوليس (المدن الخمسة) وليبيا السفلى، وحوّل إقليم طرابلس إلى ولاية منفصلة.

وفي عام ٢٩٨ الميلادي شن الإمبراطور ماكسيميان حملة على الهيلاجوا أو الإيلاجوا، إحدى القبائل الليبية في صحراء سرت[٤٣].

وفي عهد قسطنطين اعتنق بعض الليبيين المسيحية، إلاّ أنهم أصبحوا من شيعة مذهب دوناتوس. وكان هذا تعبيرًا عن مشاعرهم الوطنية إذ كان مذهب دوناتوس مذهبًا منافسًا للكاثوليكية الرسمية؛ ولكن الأدهى من ذلك بالنسبة للسلطات الرومانية في إقليم طرابلس ان السيركومويين، وهم متطرفون دوناتيون ينتمون إلى مستعمرة فقيرة بائسة، ينهبون مزارع الكاثوليك والوثنيين على السواء[٤٤].

وبعد عدّة سنوات من السلام، اجتاحت قبيلة ليبية جديدة هي قبيلة «الأوستورياني» أراضي ليبتوس ماجنا في عام ٣٦٣، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة التي تحصّنت وراء أسوارها القوية. وعلّل «الأوستورياني» هجومهم على المدينة بأنه انتقام لمقتل واحد من أبناء قبيلتهم على أيدي سلطات إقليم طرابلس. ولكنه كان – كما يقول أميانوس مارسيللوس Ammianus Marcellus (٢٨، ٦) انتقامًا رهيبًا، فقد أعملوا القتل في الفلاحين وأحرقوا كل ما استطاعت أيديهم الوصول إليه. وطلب سكان ليبتس ماجنا المساعدة من رومانوس الياور الافريقي (فيما بين عامي ٣٦٣ و ٣٧٣ من عهد الإمبراطور فالنتيان الأول (٣٦٤ – ٣٧٥). ووعدهم رومانوس بالمساعدة بشرط أن تقدّم له المدينة أربعمائة من الإبل وقدرًا كبيرًا من المؤن. وشكت المدينة رومانوس إلى الإمبراطور. ولكن

رومانوس كان على حق ، إذ كان يتعذّر عليه بغير ذلك أن يحارب الليبيين الذين أتاح لهم استخدام الإبل سرعة الكر والفر. وعاد الأوستورياني إلى تخريب الأراضي المحيطة بليبتوس ماجنا وحاصروا المدينة ثمانية أيام ثم اضطروا إلى الإنسحاب. وكان الفضل في إنقاذ المدينة ، هذه المرة أيضًا ، لحصونها القوية. ويقول البعض إن حرس الحدود انضموا إلى الأوستورياني. وأيًا كان الأمر ، فقد أدّت هذه الغارات المتواصلة إلى انهيار اقتصاد المدن الساحلية في إقليم طرابلس كما قامت هذه القبائل المحاربة بالهجوم على مدينة أويا ، ويحتمل أن يكونوا قد هاجموا أيضًا صبراطة على الرغم من أن أميانوس لم يذكر شيئًا عن غارات ضد هذه المدينة[٤٥].

وكان على منطقة « المدن الخمسة » أن تواجه هي الأخرى هجوم الأوستورياني. وأفضل مرجع في هذا الصدد هو سينسيوس ، أسقف طولميته[٤٦]. فقد شنّ الأوستورياني في بداية عام ٤٠٤ هجومًا من كل الجهات ، ويبدو أن أسلوبهم المفضّل في الحرب ، الذي استخدموه أيضًا في إقليم طرابلس ، كان هو اجتياح المناطق الريفية وفرض حصار مستمرّ على المدن. وقد خاض سينسيوس غمار هذه الأزمة ساعيًا إلى انقاذ بلاده ، فقد كان يرغب ، حسبما يقول في إحدى رسائله ، أن يتعرّف على أولئك الذين واتتهم الجرأة على مهاجمة مواطنين رومان. ويقول في رسالة أخرى له إنه كان على رأس المدافعين عن حصون المدينة وإنه اخترع مقلاعًا قام بتركيبه بنفسه لقذف الحجارة على العدو. وفي رسالته رقم ٧٣ ، الموجّهة إلى صديقه ترويلوس ، يتحدّث سينسيوس بأسى عن سوء حظ بلاده التي تواجه مصيرًا مظلمًا من جرّاء الحرب والمجاعة. وقد حاول – بمساعدة ملاك الأراضي الأغنياء في الريف – أن يحشد قوات من المتطوعين المحليين وأن يحوّل المساكن الريفية إلى حصون صغيرة ، يعتلي الحراس سقوفها كي ينبّهوا الآخرين إلى مقدم العدو. ويثني سينسيوس على أنيسيوس ، قائد القوات الرومانية الذي عيّن قبل ذلك بفترة قصيرة ، لتمكنه من هزيمة عدد كبير من الأوستورياني بقوات لا تزيد على أربعين وحدة.

غير أن فرحة سينسيوس لم تلبث أن تبدّدت. ففي عام ٤١٢ ، حلّ محلّ انيسيوس قائد غير كفء هو اينوسنتيوس. وتردّى الوضع حسبما يتبيّن من بيانه الثاني ، ذلك الخطاب الذي ألقاه لرفع الروح المعنوية لرجاله.

وكانت غارات الأوستورياني وخيمة العواقب إذ شاركتهم فيها قبيلة المازيك (mazikes) ، وهي قبيلة ليبية أخرى شاركت أيضًا في تقويض الحياة في السهل الساحلي[٤٧].

كما نشأت علاقات ودية بين مواطني قورينة وبعض القبائل الليبية ، ولا سيّما قبيلة المكاي. وكان يصرّح لأبناء هذه القبيلة بدخول البنتابوليس شريطة أن يحصلوا على إذن مكتوب من حاكمهم الذي كان فيما يبدو ضابطًا رومانيًا ، مما يدلّ على أن المكاي كانوا يخضعون لحكم عسكري روماني[٤٨].

وتوضح مدونة ثيودوسياموس (Codex Theodosiamus) (٧، ١٥، ١) أن بعض قطع الأرض في إقليم طرابلس كانت تمنح لغير الرومانيين الذين أصبحوا حرسًا للحدود والخنادق، والذين كانوا أبناء قبائل ليبية. ويذكر أوغسطين أن بعض القبائل القاطنة بالقرب من الحدود والتي تم اخضاعها، لم يعد يحكمها ملوك من أبنائها بل حكام تعينهم الحكومة الرومانية، ومن ثم فقد اعتنقت هذه القبائل المسيحية. وربما ينطبق ذلك على الأرزوج Arzuges الذين كانوا يعيشون في إقليم طرابلس، والذين تعهدوا للسلطات الرومانية بضمان سلامة المسافرين وأصحاب الأرض. وأغلب الظن أن الأرزوج كانوا ليبيين - فينيقيين، اذ يظهر في لغتهم تأثير قوي للغة البونية. وكان الأرزوج وثنيين، إلاّ أن كثيرًا منهم اعتنقوا المسيحية في نهاية القرن الرابع، وعملوا كحراس في منطقة الحدود[٤٩].

ومن الشائق أن نعلم من مرسوم أناستاسيوس أن حركة الرومان في أرض البرابرة (أي الليبيين) كانت تخضع لقيود صارمة في إقليم قورينة[٥٠].

وقد حصّنت الهضبة العليا المحيطة بقورينة وبعض المدن الواقعة أسفلها، مثل درنيس ومرسى سوسة، كتدبير عسكري وقائي في مواجهة الغارات الليبية التي كان يشنّها الأوستورياني والمازيس، بحماية توفّرها لها الطبيعة كما يوفّرها نظام بالغ التعقيد يتكوّن من حصون وكنائس محصّنة وأبراج مراقبة، يعرف بعضها باسم القصور، وقد انتشر هذا النظام على نطاق واسع في العصور البيزنطية[٥١].

وخلفت قبيلة لواته القوية القبائل الليبية الأخرى في تهديد إقليمي طرابلس وقورينة. وقد أقامت لواته علاقات ودية مع الوندال الذين كانوا قد احتلوا إقليم طرابلس في عام ٤٣٩. الاّ أن نزاعًا نشب بين الطرفين في عام ٤٧٧، عقب وفاة الملك جنسيريك. وقاد كاباون (Cabaon)، زعيم لواته، تمردًا في إقليم طرابلس. ويورد بروكوبيوس وصفًا شائقًا للمعركة التي نشبت بين الطرفين. وكان الوندال يقاتلون على ظهور الخيل بينما استخدم الليبيون الإبل، وهُزم الوندال. ثم ألحقت قبيلة لواته هزيمة أخرى بالوندال وقامت بنهب ليبتس ماجنا. ومن المرجح أن هذه المدينة قد سقطت في عام ٦٤٣ قبل أن يتوجّه عمرو بن العاص إلى طرابلس بعد فتح قورينة.

وقد اجتاحت قبيلة لواته ليبتس ماجنا واستولت عليها بعد أن عاد البيزنطيون إلى احتلال إقليم طرابلس، وذلك لكي تنتقم لذبح ثمانية من وجهائها في قصر الدوق سرجيوس في عام ٥٤٣[٥٢]. وهكذا شقّت قبيلة لواته طريقها إلى قورينة حيث استقرت بدورها في سهولها الخصبة، واتخذت من برقة عاصمة لها[٥٣].

وأصبحت قبائل لواته تمثّل بحق القوة المسيطرة داخل ليبيا وظلّت على هذا الحال حتى جاء العرب في عام ٦٤٢. وكان عمرو بن العاص من الحكمة بحيث سلّم بهذه الحقيقة الواقعة وتعاون مع لواته فتمكّن من فتح قورينة في وقت قصير.

تلك هي باختصار قصة مقاومة الليبيين للقوى الأجنبية التي احتلت أراضيهم وفرضت قيودًا على حرية حركتهم وسعت إلى ابقائهم في منأى عن السهول الساحلية.

ملاحظات

١. C. B. McBurney and R. W. Hey, *Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaïcan Libya*, Cambridge University Press, 1955; C. B. McBurney, *The Stone Age of Africa*, Harmondsworth, Pelican Books, 1960; U. Paradisi, 'Prehistoric Art in Gebel el-Akhdar (Cyrenaica)', *Antiquity*, Vol. XXXIX, No. 154, June 1965, pp. 95-101.

٢. ترد دراسة استقصائية جيدة للرسوم التي تمثل الليبيين في النقوش الفرعونية والنقوش المصرية البارزة في O. Bates, *The Eastern Libyans*, London, Macmillan, 1914; J. H. Breasted, *Ancient Records of Egypt*, Chicago, University of Chicag ress, 1906; N. K. Sandars, *The Sea Peoples*, London, Thames & Hudson 1978; K. A. Kitchen, *The Third Intermediate Period in Egypt c. 1100-650 B. C.*, Warminster, Airs & Phillips, 1973

٣. 'Expedition of the University of Pennsylvania, Spring 1963', *Bulletin of the University Museum of the University of Pennsylvania*, Vol, 5, No. 5

٤. Herodotus, IV. 168-86; S. Gsell, *Herodotus, Textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du Nord*, pp. 66 ff., Algiers, Typographie A. Jourdan, 1915; W. W. How and J. Wells, *A Commentary on Herodotus*, pp. 356-62, Oxfor University Press, 1967.
كان هيرودوت يعتبر جميع سكان شمال افريقيا ليبيين انظر:
J. Desanges, *Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité à l'ouest du Nil*, Dakar, Université de Dakar: Section d'Histoire, 1962

٥. ترد قصة تأسيس قورينة بالتفصيل في الكتاب الرابع لهيرودوت. Herodotus, IV. 148 ff.

٦. هيرودوت، الكتاب الرابع، ١٦٩.

٧. Ibid., IV. 170; How and Wells, op. cit., pp. 355, 357

٨. A. H. M. Jones, *The Cities of the Eastern Roman Provinces*, p. 353, Oxford, Clarendon Press, 1937; cf. F. Chamoux, *Cyrène sous la Monarchie des Battiades*, p. 221, Paris, 1953 الذي يرى أن أهل الجيرة *perioikoi*، هم الوافدون الجدد من اليونان. ولاحظ روزنبوم E. Rosenbaum السمات الليبية في بعض تماثيل قورينة، E. Rosenbaum, *A Catalogue of Cyrenaican Portrait Sculpture*, pp. 8, 22, London, Oxford University Press, 1960.
وتظهر بعض الأسماء الليبية بين أسماء مواطني اليونان، الاّ أن شامو، المرجع سالف الذكر، يعتبر ذلك استثناء.

٩. هيرودوت، الكتاب الرابع، ص ١٥٩.

١٠. المرجع نفسه.

١١. المرجع سالف الذكر، الكتاب الرابع، ١٦٠. ساعدت هذه القبيلة أشقاء الملك في تأسيس برقة (المرج الحديثة).

١٢. *CAH*, Vol. III, pp. 684; cf. Chamoux, op. cit., pp. 162 ff

١٣. *Sallust, Jug.*, Vol. LXXIX; C. Dulière, 'Les Autels des Philènes dans le fond de la Grande Sytre', *Correspondance d'Orient,* 8-9, 1965-66, pp. 17-26; R. Goodchild, 'Arae Philaenorum and Automalax', in J. Reynolds (ed.). *Libyan Studies,* pp. 155-72, London, 1976

١٤. Diodurus Siculus, XIV, 34

١٥. Ibid., XVII, 49. M. Cary, *A History of the Greek World, 323-146 B.C.*, p. 12, London, Methuen, 1972

١٦. Diodorus Siculus, XVII, 21 انظر عن الحكم البطلمي : J. Machau, 'Cyrène à l'Époque Hellénistique', *Rev. Hist.*, 1951, pp. 41-55

١٧. O. Bates ، المرجع سالف الذكر ، ص ٥٥. وكان سكيلاكس Scylax هو اول من ذكر المارماريد ولكنه لم يذكر الجيليجاميين. فلم يذكر هذا الاسم سوى هيرودوت.

١٨. انظر : Bates, op. cit; Desanges, op. cit., p. 163; How and Wells,op. cit., p. 356

١٩. *SEG,* IX, ، تناول هذا الدستور بالبحث علماء كثيرون من بينهم ريناش : S. Reinach, 'La Charte Ptolémaïque de Cyrène', *Rev Arch.*, Vol. XXVI, 1927, pp. 1-30; M. Cary, 'A Constitutional Inscription from Cyrene', *JHS,* Vol. XLVIII, p.222-38.
(وهو مقال جيد ، إلاّ أن ترجمته لبعض أحكام الدستور تحتاج إلى اعادة نظر) ، وأولفريو :
G. Oliverio, 'Documenti di Cirene Antica', *Rivista di filogia classica,* Vol. VI, No. 2-3, 1928, pp. 1928, pp. 183-222; Jones, op. cit., No. 9, p. 485

٢٠. *SEC,* IX. 77

٢١. Cary, op. cit., p. 85

٢٢. Polybius, v. 65, 5; cf. G. T. Griffith, *The Mercenaries of the Hellenistic World,* pp. 188 f., Cambridge University Press, 1935

٢٣. A. Rowe, *A History of Ancient Cyrenaica,* supplement to *Annales du Service des Antiquités de l'Égypte,* No. 12, pp. 41 ff., Cairo, 1948

٢٤. *SEG,* IX. 7; M. N. Tod, 'Greek Inscription III', *Greece and Rome,* Vol. II, No. 4, October 1952, pp. 47-51

٢٥. D. E. L. Haynes, *An Archaeological and Historical Guide to the Pre-Islamic Antiquities of Tripolitania,* pp. 33 ff., Tripoli, 1959

٢٦. انظر Bates, op. cit., pp. 55-56 حيث ترد مقتطفات من كتابات هؤلاء المؤلفين.

٢٧. S. I. Oost, 'Cyrene 96-74 B.C.', *Classical Philology,* Vol. LVIII, No. 1, pp. 11-25. Cf. Plutarch

٢٨. P. Romanelli, *La Cirenaica Romana (96 a.c.-642 d.c.)*, p. 50, Verbania, 1935

٢٩. يذكر بلينيوس الكبير (التاريخ الطبيعي ١٩ – ٤٠) أنه في عام ٩٣ ق.م. «تمّ إرسال ثلاثين رطلاً من السيلفيوم من قورينة إلى روما باسم الدولة. وعثر قيصر على خمسين ألف رطل من هذا النبات في الخزانة العامة». ويحتمل أن يكون هذا المقدار أتاوة كما قد يكون هدية من حكومة قورينة فإذا كان أتاوه يحتمل أن تكون قد فرضت على السكان المحليين «انظر Oost ، المرجع سالف الذكر ، الصفحة ١٣.

٣٠. C. M. Daniels, 'The Garamantes of Fezzan' *Libya in History,* Historical Conference, Benghazi, 1968, pp. 261-71; M. I. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Roman Empire,* 2nd ed., p. 338, Oxford Univerrsity Press, 1963; J. M. Reynolds, *The Inscriptions of Roman Tripolitania,* No. 301, Rome 1952

٣١. *SEĞ,* IX, 63

٣٢. Rostovtzeff, op. cit; R. Syme, 'Tacifarinas, the Musulamii and the Thubursicu', in

Studies in Roman Economic and Social History, pp. 113-30, Princeton University Press, 1951

٣٣. تمثل احدى لوحات الفسيفساء في زليطن أسرى حرب من الجايتول بعد قتلهم بوحشية في المدرج. انظر: Rostovtzeff, op. cit.: Syme, op. cit.

٣٤. Tacitus, *Historia*, IV, 49-50, Pliny, *Natural History*, V. 38 يحتمل أن يكون فاليريوس فيستوس قد حقق انتصاره على الجارامانت بعد انقضاض مباغت استخدم فيه الابل، انظر: O. Brogan, 'The Camel in Roman Tripolitania', *PBSR*, Vol. XXII, 1954, pp. 126-31 (p. 128); R. Goodchild, 'Oasis of Legio III on the Routes to Fezzan', *PBSR*, Vol. XXII, 1954, p. 56

٣٥. انظر الحاشية ٣٤.

٣٦. Daniels, op. cit.

٣٧. Pliny, *Natural History*, V

٣٨. انظر: E. W. Bovill, *The Golden Trade of the Moors*, p.45, London, Oxford University Press, 1970

٣٩. Haynes, op. cit., p. 39

٤٠. انظر الدراسة المتميزة التي أجراها جودتشايلد ووارد بيركينز، والتي أعاد نشرها رينولدز في *Libyan Studies*, Nos, 2, 3, 4, 5, 13, 15, London, 1976

٤١. انظر الحاشية ٤٠.
تجدر الاشارة إلى أن حرس الحدود استخدموا أحرفًا لاتينية في كتابة نقوشهم البونية. انظر: R. Goodchild, «Roman Sites on the Tarhuna Plateau of Tripolitania», pp. 72-93., انظر المرفق الأول في الدراسة نفسها الذي كتبه S. Leir Della Vida

٤٢. *SEG*, IX. 9; cf. R. Goodchild, 'Deline of Cyrene and Rise of Ptolemais', in Reynolds (ed.), op. cit., p. 225.

٤٣. Haynes, op. cit., p. 57 ويقرن اسم هذه القبيلة، في المصادر البيزنطية، باسم قبيلة لواته.

٤٤. D. E. L. Haynes, op. cit., p. 55 f; R. H. Warmington, *The North African Provinces from Diocletian to the Vandal Conquest*, Cambridge, pp. 66 ff., Cambridge University Press, 19

٤٥. Warmington, op. cit., pp. 9 f., 19; Bates, op. cit., 237; A. H. M. Jones, 'Frontier Defense in Byzantine Libya', *Libya in History*, op. cit., pp. 289-97 (p. 290); J. M. Reynolds, The Austuriani and Tripolitania in the Early Fifth Century', *The Society of Libyan Studies, 8th Annual Report, 1976-1977*, p. 13

٤٦. لا بدّ من دراسة قورينة وسينسيوس معًا في هذه الفترة، وقراءة رسائله بتمعّن حتى يمكن الإلمام على نحو جيد بالفترات العصيبة التي عانت فيها قورينة وعانى فيها سينسيوس من وطأة ضغط الأوسترياني. ويمكنني الإشارة إلى رسائله التي ترجمها أ. فتزجيرالد وكذلك إلى مقالاته وأناشيده. انظر: A. Fitzqerald, *The Letters of Synesius of Cyrene* Oxford University Press, 1926; *The Essays and Hymns of Synesius of Cyrene*, Oxford University Press, 1930; R. Goodchild, 'Synesius of Cyrene Bishop of Ptolemais', in Reynold (ed.). op. cit., pp. 239-54

٤٧. Jones, '*Frontiers Defence...,'* op. cit., p. 293

٤٨. R. Goodchild, 'The Limes tripolitanus II', in Reynolds (ed.), op. cit., pp. 36 f

٤٩. Jones, 'Frontier Defence'..., op cit.

٥٠. D. J. Smith, «The Centenaria of Tripolitania and their Antecedents», *Libya in History*, op. cit., p. 229 FF.

٥١. Bates, op. cit., pp. 67 ff.; Haynes, op. cit., pp. 62 f.; Procopius, *Wars*, IV, 21, pp. 1-22, 13-20; 28, pp. 48-57: *Buildings*, VI. 4, pp. 6-9; D. I. Mattingley. 'The Laguatan: A Libyan Tribal Confederation in the Late Roman Empire', *Libyan Studies*, Vol. 14, 1983, pp. 96-186

في هذا المقال ، يعبر ماتنجلي Mattingly بوضوح عن فكرته القائلة بأنه في أواخر العهد الروماني ظهر اتحاد قوي من القبائل الليبية يحمل اسم Laguatan أو Leuathae أو «لواته» ، وان هذا الإتحاد كان تحالفاً بمعنى الكلمة بين نوعين رئيسيين من القبائل : البربر الجدد الذين هاجروا من الشرق والسكان الأصليين للواحات الصحراوية في قورينة وإقليم طرابلس. ويفضل ماتنجلي استخدام اسم Laguatan وصيغة جمع ليبية للدلالة على اسم هذا الاتحاد المكوّن من قبائل ليبية ، رغم أن بروكوبيوس والمؤلّفين العرب قد استخدموا اسم لُواته (بضم اللام) أو لَواته (بفتح اللام). وتجدر الإشارة إلى ما أوضحه ماتنجلي من أن أداة الحرب الرئيسية التي استخدمتها هذه القبائل كانت الخيل وليس الإبل.

٥٢. R. Goodchild, *Cyrene and Apollonia*, p. 28

٥٣. R. Goodchild, 'Byzantines, Berbers and Arabs in Seventh Century Libya', in Reynolds (ed.), op. cit., pp. 255-267